

الشباب وآفة المخدرات

- قراءة سوسيولوجية في الأسباب و الانعكاسات -

فرفار سامية *

مقدمة:

تعد مشكلة المخدرات من أخطر ما يواجه المجتمعات البشرية متخلفة كانت أم متقدمة، فإنشارها تعاطيا و إدمانا بين مختلف الأعمار و من الجنسين يهدد سلامة و استقرار المجتمع. فالإدمان على المخدرات يعد من القضايا التاريخية و العالمية المعيقة لتنمية المجتمعات ذلك لأن الإدمان يؤثر على إنتاجية الفرد كما وكيفا، ومن ثمة التأثير على إنتاجية المجتمع و تطبيق برامج التنمية لا سيما و أن فئة الشباب الفاعلة في المجتمع هي الأكثر انجرافا نحو آفة الإدمان التي تفتح المجال سهلا إلى عالم الجريمة. مما يؤدي إلى إستهلاك أموال ضخمة و جهود متواصلة من طرف الدولة لمحاربة هذه الظاهرة بدلا من استثمارها في مجالات تنمية تخدم المجتمع. ومن دون شك أن الظروف المادية و الاجتماعية التي يعيشها الفرد من مشاكل و أزمات و بطالة... تجعل إمكانية الإنزلاق في بؤرة المتعاطين هينة كمحاولة للهروب و الهجرة من الواقع الذي رفضه، هذا السلوك يكون له أثارا مباشرة وغير مباشرة على الفرد و الأسرة و المجتمع. هذا ما يقودنا إلى التساؤل عن العوامل الكامنة وراء إدمان الشباب على المخدرات و انعكاسات هذه الظاهرة على محيطه الخاص و العام ؟

و قبل الخوض في مناقشة هذا العمل يجب الإنطلاق أولا من إعطاء مفهوم عام عن الشباب و المخدرات و الإدمان.

1- من هم الشباب ؟ :

يعد مفهوم الشباب حديث النشأة على عكس ما هو شائع، « حدده علماء الاجتماع بأنه مرحلة المراهقة و ما بعدها و أن العناية بالشباب يتم في إطار التكافل الاجتماعي و تطوير الأسرة و ذلك من خلال الإهتمام بتعليم الشباب و رعايتهم اجتماعيا و إقتصاديا و ثقافيا لتمكينهم من الإدماج الاجتماعي و المهني » (Olivier Gallarid, 2002 p 6).

كما يمكن الحديث عن الشباب من الوجهة السوسيولوجية « كمعطى اجتماعي غير متجانس و متغير حسب المجتمعات يندرج في سياق عام، يعتبر السن معطى بيولوجي يمكن التصرف فيه اجتماعيا » (Bordieu, P, 1972, p145). و نتيجة لإختلاف العلماء في تحديد مفهوم للشباب، ذهبت بعض الدراسات إلى تحييد كلمة الشباب، فأختزلتها في طور طبيعي بين الطفولة و الكهولة.

* أستاذة مساعدة، قسم علم الاجتماع - جامعة معسكر

2- مفهوم المخدرات :

اختلفت و تعددت تعاريف المخدرات، لكن يمكن تحديدها فيما يلي :
 « كل مادة طبيعية أو صناعية أو كيميائية تؤدي خواصها لتكون ظاهرة التعود والإدمان و تؤدي لحالة من الهدوء و النوم و الإسترخاء أو النشاط و الإنتباه و الهلوسة و يؤدي الإمتناع عنها إلى ظهور أعراض مرضية نفسية و جسمية خطيرة على الفرد و المجتمع »
 (رجب محمد أبو جناح، 1999 ص 30).

3- مفهوم الإدمان :

الإدمان هو تكرار تعاطي المواد المخدرة سواء كانت طبيعية أي من أصل نباتي أو مواد مصنعة أو نفسية على شكل أدوية ذات تأثير نفسي . حيث يتعود عليها الفرد لدرجة صعوبة الإقلاع عنها مع حاجة الجسم بين فترة و أخرى إلى زيادة الجرعة، فتصبح حياة المدمن تحت رحمة هذه المادة و في حالة الإقلاع أي الإمتناع تظهر على المدمن أعراض مختلفة كالعجز في الحركة، مغص، عدم القدرة على التركيز، تشنجات عضلية (رجب محمد أبو جناح، 1999، ص 32).
 كما يعرف الإدمان بأنه « الحد الذي تفسد معه الحياة الإجتماعية و المهنية للفرد حيث يصل إلى صورة مركبة معقدة تتميز ببعض السمات مثل الرغبة الملحة في تكرار التعاطي، الإتجاه نحو زيادة الكمية مما يكون له تأثيرات سلبية على الفرد و على الوسط الإجتماعي المحيط به » (رشاد أحمد عبد اللطيف، 1999 ص 27). فالإدمان تكون له آثارا ضارة بالفرد و المجتمع معا من النواحي الجسمية و النفسية و الإجتماعية و الإقتصادية.

4- سوسيولوجيا إدمان الشباب على المخدرات :

يذهب علماء الاجتماع إلى أن « الإنسان لكي يكتسب خاصيته الإجتماعية فإنه لابد أن يعيش في مجتمع يوجد الأنا فيه مع الآخرين من خلال السياقات الجزئية التي تتوسط التفاعل بين الفرد و المجتمع » (علي بوعنقة، 2007، ص 202). بمعنى أن درجة اندماج الفرد في البناء الإجتماعي و الإقتصادي و الثقافي يجعله شخصا سويا، فشعور الشباب بالتهميش و الإقصاء من النسق الإجتماعي مثلما هو حال الشباب في مجتمعات العالم الثالث بما فيها الجزائر. و جعله يعاني من الصد و عدم الإستيعاب يساهم في تعزيز سلوك الإنحراف المجسد في الإدمان على المخدرات بمعية عوامل أخرى مشتركة إجتماعية و نفسية و إقتصادية و دينية دون أن نغفل المسؤولية الفردية للمدمن في حد ذاته و بهذا يعتبر الإدمان خروجاً عن المعايير الإجتماعية و الأهداف المجتمعية في آن واحد .

4-1- العوامل الإجتماعية :

اهتم الباحثين في العلوم الإجتماعية و علوم التربية في تفسيرهم للسلوك الإنحرافي و منه تعاطي المخدرات بالتعرف على الأعمال التي تؤدي إلى تبني الأفراد لهذا السلوك . و نجد في هذا الإطار أن سعد المغربي أعطى تفسيراً إجتماعياً للإدمان على المخدرات يقوم على أساس افتراض أن أي سلوك إنساني ما هو إلا نتيجة تتابع الخبرات الإجتماعية التي يكتسب من خلالها الفرد مفهوماً عن معنى السلوك و المواقف المرغوبة و غير المرغوبة، و هذا يتم من خلال التعرف على البناء

الأسري و المعايير الثقافية كالتنشئة الاجتماعية الأسرية للفرد و طبيعة الأسرة و جماعة الرفاق و التربية الدينية ... » (رشاد أحمد عبد اللطيف، 1999، ص 65).

4-1-1- التنشئة الاجتماعية الأسرية و إدمان الشباب على المخدرات :

تعتبر التنشئة الاجتماعية عنصرا فعالا في التأثير المباشر و غير المباشر على شخصية الفرد واتجاهاته المختلفة داخل البناء الاجتماعي و « تشمل التنشئة الاجتماعية عملية التشكيل و التغير و الإكتساب التي يتعرض لها الطفل في تفاعله مع الأفراد و الجماعات، و صولا به إلى مكانة بين الناضجين في المجتمع بقيمتهم و اتجاهاتهم و معاييرهم و عاداتهم و تقاليدهم، و هي عملية التفاعل الاجتماعي التي يكتسب فيها الفرد شخصيته الاجتماعية التي تعكس ثقافة مجتمعه » (صالح محمد أبو جادو، 1998، ص 15-16).

و سنحاول أن نوضح أثر هذه الجوانب في السلوك الانحرافي و الاتجاه نحو إدمان المخدرات، إذ يرى بعض العلماء في هذا الصدد « أن تعاطي المخدرات هو سلوك مكتسب شأنه شأن أي سلوك اجتماعي آخر فالتنشئة الاجتماعية غير الجيدة تقرر أنماطا و سلوكا انحرافيا » (رشاد أحمد عبد اللطيف، 1999، ص 67). فعدم التفاعل السوي بين الآباء و الأبناء يؤدي إلى حرمان الفرد من الشعور بالأمن و الإستقرار بين أحضان والديه، مما يكون له دور في التوجه نحو الانحراف و منه تعاطي المخدرات. كما أن عنصر الضبط و المراقبة يساهم في التأثير على الأبناء و بالتالي ارتكابهم للسلوك المنحرف سواء كان هذا الضبط صارما متميزا بالمراقبة الشديدة بالبيت أو بالمدرسة أو بالعمل أو بالشارع و حرمان الإبن من ممارسة جزء من حريته مما يجعل الفرد يشعر بفقدان القيمة الذاتية له و انتشار الدكتاتورية داخل الأسرة و عدم الثقة بالنفس و تفكك الروابط بين أعضائها، أو كان هناك تهاونا و سلبية في الضبط و عدم المراقبة و المتابعة التامة للأبناء مما يؤدي بهم كذلك إلى الإستهتار و السلبية و عدم تمثيل السلوك القويم. زيادة إلى تفشي بعض السلوكيات غير السوية عند الوالدين كإستعمال المهدئات و المنومات بإستمرار « و عدم إحترامهم للعادات و التقاليد و القوانين الاجتماعية و التقليد الأعمى للآخرين و انحلال الأخلاق داخل الأسرة » (رجب محمد أبو جناح، 1999، ص 125) كل هذا يؤثر سلبا على الأبناء.

4-1-2- طبيعة الأسرة :

أثبتت العديد من البحوث الاجتماعية أن إقبال الأبناء على تعاطي المخدرات يرتفع عند الأسر التي يشوبها التفكك الأسري بسبب الطلاق أو الهجر مما يفرز حياة عائلية غير مستقرة و انتشار العدوانية بين أفراد الأسرة، تدفع بالأبناء إلى الإدمان على المخدرات كتعبير عن الهروب من المشاكل اليومية. و هذا يوضح أهمية مفادها أن « انعدام التكامل و التفاعل في الأسرة سبب في ظهور بعض المشكلات الاجتماعية عند الأبناء، و أن الحرمان من مشاعر الأمن و الحب و الإستقرار يدفع الأبناء للسلوك غير السوي كمظهر من المظاهر غير السوية » (حسن مصطفى عبد المعطي، 2002، ص 25).

4-1-3- تأثير جماعة الرفاق :

تلعب جماعة الأصدقاء بإعتبارها مصدرا من مصادر التنشئة الاجتماعية دورا بارزا في التأثير على عناصرها بتبني سلوكيات مختلفة كتعاطي المخدرات. و لقد ناقشت العديد من النظريات الاجتماعية أهمية الأقران و الرفاق في التأثير المتبادل بينهم و بررته بأن « السلوك الإجرامي ينتقل

بالتعلم الناتج عن الإختلاط بالنماذج الشاذة و رفاق السوء، فالفرد يتعلم السلوك المنحرف من اختلاطه بغيره عن طريق مجالستهم و تناول الحديث معهم » (رشاد أحمد عبد اللطيف، 1999، ص 79). إذ يحاول أن يكون مقبولا عندهم ويتجه إلى نفس سلوكهم حتى لا يفقد مكانته وأهميته بين رفاقه إذا هو لم يفعل مثلهم. حيث تشكل جماعة المتعاطي مثلا ثقافة فرعية خاصة بها داخل البناء الاجتماعي وبالتالي يتعلمها أعضاء هذه الجماعة و تشكل موجهها لسلوكهم الإنحرافي.

4-1-4- الوازع الديني :

نجد أن العلامة عبد الرحمان بن خلدون توصل إلى أن الاجتماع الإنساني لا يمكن فهمه و تفسيره دون الأخذ بعين الإعتبار الوازع الديني بإعتباره وسيلة للضبط الاجتماعي، فضعف الوعي الديني و المشاعر الدينية من شأنه أن يجعل الفرد فريسة للآزمات النفسية التي تؤدي إلى سلوكات إنحرافية كالإدمان على المخدرات. حيث يفقد الفرد صلته بخالقه و يضعف إيمانه فيبتعد عن تنفيذ أوامره و ينجر وراء أهوائه و نزواته الدنيوية.

4-2- العوامل النفسية :

إن الاضطرابات و المشاكل النفسية و السلوكية لدى الأفراد كثيرا ما تدفعهم إلى تعاطي المخدرات كحل لآزمتهم، لإعتقادهم بأن المخدرات تشعرهم بالنشوة و السعادة و النسيان. و التي تربط بشكل أو بآخر بـ :

4-1-2- تركيب الشخصية :

تعتبر شخصية الفرد من العوامل المساعدة في تعاطي المخدرات، فغالبا ما يتميز المتعاطين بخلل و اضطراب في الشخصية و قدر كبير من القلق و الإكتئاب و التوتر و نقد الذات حيث أكدت العديد من الدراسات السيكلوجية « أن هناك استعدادا تكوينيا معيناً يبدأ في مراحل النمو النفسي المبكر يؤدي إلى القابلية للإدمان على المخدرات وأن شخصية المدمن تتميز بضعف الذات و كف العدوان و اضطراب التوحد و انخفاض مستوى الطموح و التشاؤم و عدم الثقة بالسلطة و النظم الاجتماعية » (حسن مصطفى عبد المعطي، 2002، ص 48) إلى غير ذلك من مشاعر القصور و عدم الكفاية.

4-3- العوامل الاقتصادية :

تعتبر إشكالية التنمية الإقتصادية هاجس دول العالم الثالث بما فيها الجزائر، التي تبنت نموذجا تنمويا متحولا نتيجة لتأثره بالتغيرات التي عرفها الإقتصاد العالمي مروراً بالنموذج الاشتراكي أو الإقتصاد الموجه القائم على حساب التكاليف الاجتماعية وصولاً إلى المنهج الرأسمالي أو إقتصاد السوق القائم على حساب التكاليف الإقتصادية. هذه التحولات أفرزت عدة مشاكل إقتصادية و إجتماعية، كتسريح العمال في إطار سياسة الخروج الإرادي للعمال و انتشار البطالة و قلة مناصب الشغل لا سيما عند فئات الشباب. وخلق نوع « من الإحباط في حياة أفراد المجتمع، و الإحباط أصلا هو شعور المرء بخيبة عندما لا يستطيع إشباع حاجاته بسبب عوائق مادية، زيادة إلى نزوح السكان المتواصل الذي ازداد بعد الإستقلال، دفع بآلاف الشباب إلى المدن بغية الحصول على عمل هارين من الحياة الصعبة في المناطق الريفية » (علي بو عناق، 2008، ص 163) فانشرت

الأكواخ والبيوت القصديرية و تراجع القدرة الشرائية .
هذه الإختلالات الإقتصادية و الإجتماعية « تحدث على مستوى السطح الإجتماعي انخفاضاً و ارتفاعاً تنجم عنه تداعيات أخرى في قطاعات كالسكن و البطالة وقضاء وقت الفراغ و التسرب المدرسي حيث أن ضيق السكن على سبيل المثال يجعل فرص الإنجذاب إلى الشارع يوميا و لمدة طويلة يؤثر على التواصل الإجتماعي بين أعضاء الأسرة، كما يخلق ألفة بين الفرد و الشارع » (علي بوعنقة، 2008، ص164) ما يجعل إمكانية الإنزلاق في بؤرة الإنحراف كالتعود على تعاطي المخدرات .

وما يزيد في تعرض الفرد إلى الإنحراف كذلك تدني إمكانيات الأسرة المادية الذي يجعلها لا تفي بإشباع حاجات أفرادها و خاصة فئة الشباب التي تكثر مطالبها، مما يؤدي إلى اغترابهم عن النسق الإقتصادي و الإجتماعي و الثقافي معبرين عن ذلك بمختلف أنواع السلوك الإنحرافي كالسرقة و الخطف و الإدمان .

5- انعكاسات إدمان الشباب على المخدرات :

مثلما أشرنا سابقا إلى أن جمود الواقع أمام الشباب وعدم احتواء هذه الطاقات و إدمانها في النظام الإجتماعي يؤدي بهم إلى تعاطي المخدرات وإدمانها، هذا ما يكون له انعكاسات سلبية من دون شك على كل الأصعدة النفسية، الإجتماعية و الإقتصادية .

1-5- الجانب النفسي و الجسدي :

الشخص المدمن على المخدرات يصبح لا محالة جسمه محطم، أعصابه متوترة، شهيته قليلة يعاني كثيرا من الأمراض في الكبد و القلب و الجهاز التنفسي و تقوي شذوذه الجنسي... زيادة إلى تدهور حالته النفسية إذ يصبح كئيبا، خائفا يشعر بالنقص و احتقار الآخرين ونبذهم له فيصبح عدوانيا ضدهم و ضد نفسه .

2-5- الجانب الإجتماعي :

إن سقوط الفرد في بؤرة المخدرات ينعكس سلبا على المجتمع لأنه جزء منه يتأثر به و يؤثر فيه إذ ينجم عن هذا السلوك الإنحرافي التوقف عن ممارسة النشاطات الإجتماعية و الثقافية وحتى الدراسية و عزلة المدمن عن محيطه الخاص و العام، و كذا الخروج عن العادات و التقاليد و عدم احترامها مما يؤدي إلى توتر أسرة المدمن بكاملها و التي قد تصل إلى حد تفككها بسبب المشاكل اليومية. لأن الشخص المدمن يسلك طريق الجريمة من دون شك لتأمين المخدر بأية طريقة كانت كالسرقة و الخطف و حتى القتل فتنتشر العصابات لتهدد استقرار المجتمع .

3-5- الجانب الإقتصادي :

يتأثر الميدان الإقتصادي من انتشار سلوك الإدمان عند الشباب، ذلك لأن المدمن غالبا ما يلجأ إلى التأخر و التغيب عن العمل و طلب الإجازات المرضية مما يؤثر على أداء العمل فتضعف إنتاجية المؤسسة، و قد تدفع به هذه السلوكات إلى الفصل من منصبه . كما تؤدي المخدرات إلى استنزاف أموال الدولة في إنشاء عيادات و مصحات خاصة بعلاج المدمنين و مكافحة هذه

الظاهرة، دون الإستفادة منها في إقامة مصانع ومشاريع تنموية مختلفة. إلى غير ذلك من الآثار السلبية التي تعيق تطور المجتمع و النهوض بهيكله الإقتصادية و الإجتماعية و الثقافية. ويمكن القول مما سبق أن إلقاء الضوء على مشكلة إجتماعية خطيرة تهدد أمن و استقرار المجتمعات أمر معقد وواسع يحتاج إلى كتاب بأكمله حتى يتم الكشف عن كل جوانبه. إلا أنني حاولت عبر هذه الورقة البحثية الإشارة إلى أهم العوامل المؤدية إلى تبني الشباب لسلوك الإدمان على المخدرات و انعكاساته على المجتمع، و الذي يرتبط ارتباطا واضحا بالتنشئة الأسرية و الفراغ القيمي السائد في المجتمع و جماعات الأصدقاء و تدني المستوى المعيشي و قلة المرافق الإجتماعية لقضاء وقت الفراغ و البطالة... كل هذا يولد شعورا بالتهميش و الإقصاء مما يؤدي بالشباب إلى الإغتراب و اليأس ثم الإنحراف و عالم الجريمة و خطورة الظاهرة تستوجب تضافر كافة الجهود بما في ذلك المسؤولين على وضع خطة من أجل مستقبل أفضل للشباب و احتوائهم و إدماجهم في النسق الإقتصادي و الإجتماعي و الثقافي للمجتمع لحمايتهم من الضياع.

المراجع:

- 1- Galland Olivier, « Les jeunes », Edition: La Découverte, 6 ème édition, Paris, 2002
- 2- Bourdieu Pierre, « La jeunesse n'est qu'un mot, Question de sociologie », Ed. minuit, Paris, 1984.
- 3- رجب محمد أبو جناح، المخدرات آفة العصر، الدار الجماهيرية للنشر و التوزيع و الإعلان، ليبيا 1999.
- 4- رشاد أحمد عبد اللطيف، الآثار الإجتماعية لتعاطي المخدرات، المكتب الجامعي الحديث مصر، 1999.
- 5- علي بو عناق، الشباب و مشكلاته الإجتماعية في المدن الحضرية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2008.
- 6- صلاح محمد أبو جادو، سيكولوجية التنشئة الإجتماعية، دار المسيرة للنشر و التوزيع و الطباعة، ط1، الأردن، 1998.
- 7- حسن مصطفى عبد المعطي، الأسرة ومواجهة الإدمان، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع القاهرة، 2002.